أقدم مخطوط تاريخي
عن الفتوحات العربية في آسيا الوسطى

بقلم العلامة كراتشكوفسكي وقرينته السيدة فيرا

في صيف سنة ١٩٣٣ عثر في أطلال قلعة موغ عند مصب جدولكون في آسيا الوسطى على عدة وثائق عربية بينها مخطوط من جلد نخره السوس . وبعد جهد طويل أمكن العلامة كراتشكوفسكي هو وقرينته أن يجلاه ويثبتا تاريخه وعلاقته بالفتوحات العربية . وقد احتفل المستشرقون الروس وغيرهم أخيراً بتكريمه لمرور ثلاثين سنة على خدماته العظيمة للغة العربية وتاريخها وآدابها ، فرأينا نشر هذا المقال . وهو تلخيص لما كتبه عن هذا المخطوط هو وقرينته السيدة كراتشكوفسكي العالمة الشهيرة بحل الخطوط القديمة

ان من أهم العوامل التي ساعدت في درس هذا المخطوط أسماء الاعلام المذكورة فيه . فقبل وصول المخطوط الينا أخبرني من رآه بانه قد ذكر فيه اسم طرخون . فهذا الاسم كان سببا في توجيه الفكر الى تاريخ فتوحات العرب في آسيا الوسطى اذ كان الملك السغدي طرخون هو الذي عقد الصلح مع أمير العرب قتيبة سنة ٩٠ الهجرية (٧٠٨ — ٧٠٩)

ولما وصلنا المخطوط وجدنا كلمة ابني طرخون بدل ابن طرخون. فلم ندر في بادىء الامر أهذه ياء المثنى أو ضمير المتكلم . إلا أن تكرار ضمير المثنى في الوثيقة جعلنا نعتقد أن الياء هي ضمير المثنى أيضا . على أن هذا الاسم وحده لم يكن كافيا لتحديد تاريخ المخطوط ومكانه ، فعاونتا على ذلك وجود اسم آخر هو « ديواستي » ، وهذا الاسم مذكور في الوثائق السغدية . ومنها يفهم أن — ديواستي — كان يتناول ويرسل جميع الرسائل الموجودة ، اذ كان معاصراً للملك طرخون ، أما تحديد زمان هذا المخطوط ، فقد ساعدنا عليه اسم ثالث هو جراح وهو اسم نادر عند العرب ونظراً لعبث السوس في المخطوط ، لم نتمكن من حل كنية الجراح الا بعد درس دقيق للمصادر التاريخية التي دلت على أن عامل خراسان اذ ذاك كان الجراح بن عبد الله الذي جعله الخليفة عمر بن عبد العزيز عاملا على مقاطعة خراسان وحكم هذا الخليفة من سنة ٩٩ — ١٠١ هـ (٧١٧ — ٧٢٠ م) وقد تمكنا من تعيين تاريخ المخطوط بالتدقيق عندما علمنا بان الجراح قد عزل في شهر رمضان سنة ١٠٠ الهجرية فيكون زمن اقامة الجراح عاملا على خراسان سنة وخمسة أشهر فقط حين أرسل اليه بهذه الرسالة . ولهذا يمكن حصر تاريخ المخطوط في سنة واحدة أعني في سنة ٩٩ — ١٠٠ (لا بعد شهر نيسان

سنة ٧١٩ ولا قبل ابتداء سنة ٧١٨) وبفضل تحديد التاريخ والبيئة تمكنا من حل الاسم الرابع المذكور في الرق، ويظهر أن هذا الاسم قد ادخل في الرسالة على عجل وقد نخره السوس حتى أصبح من الصعب قراءته. واذا تمكنا من قراءة اسم سليمان فاننا لم نتمكن من قراءة الكنية إلا بمساعدة المصادر التاريخية التي حفظت لحسن الحظ اسم سليمان بن السارى وكيل بيت المال في سمرقند في زمن الخليفة الاموى عمر بن عبد العزيز الذى كانت له علاقة بديواستى كاتب هذه الرسالة بعد عدة سنوات

ولعل في الرسالة غير هذه الاسماء الاربعة. اذ ان في آخر الرسالة كلمة «أهل» فلا أدرى أهي بمعنى «الرهط» أم «السكان». الا أنه لم يبق بعد كلمة أهل إلا ط مسبوقة على مايظهر بالميم. ولا يمكننا أن نجزم بأن هذه الكلمة اسم علم أو موصوف كما انه لا يوجد في الاماكن المنحورة غير هذه الاسماء التي ذكرناها. على أن نص الرسالة يسمح لنا ان نستغنى عنها. وعبثاً حاولنا قراءة بعض كلمات قد خفيت تماماً

وقد يكون من المهم عند تحليل الوثائق عامة درس المصادر المعاصرة لها إلا أنه — وا أسفاه — ليس لوثيقتنا هذه مصدر تاريخي معاصر، كما يظهر من تحليل الخط. على أن توحيد نظام الدواوين والادارة في القرن الاول للهجرة في جميع نواحي الخلافة، هيأ مصدراً لرسالتنا هذه. وهو المصدر الوحيد المحفوظ من أول عهد الخلافة، أعنى به البابيروس العربي في مصر. والذى له علاقة بخدمة العامل قره بن شريك في سنة ٩٠ — ٩٦ هـ وهو وان تناول عهداً قريباً من عهد رسالتنا، إلا أنه لم يساعدنا على تحليل عبارات التحية والسلام المستعملة عادة في ذلك العهد، والتي لا قيمة لها في درس المخطوط وخلاصة الوثائق التاريخية

واننا لا نعد تحليل هذا المخطوط نهائياً لصعوبة تحليله نظراً لتلفه، ولربما وفق غيرنا من المدققين الى ما لم نقدر عليه

أن اسماء الاعلام الموجودة في الرسالة ساعدت على تحليل المناسبات التاريخية أيضاً. فاذا اهملنا الاسم الخامس المفروض أصبنا من الناحية العربية اسمين ومن السغدية اسمين

وأكثر المعلومات التاريخية الموجودة لدينا هي عن الامير الجراح بن عبد الله الذى كان من مشاهير القواد، والذى تولى عدة مناصب ادارية أكثرها في الاقاليم التي على الحدود

وكان قد اتفق أنه عين عاملا على خراسان بعد موت قتيبة بن مسلم حيث اضطر العرب الى التقهقر في فتوحاتهم أحيانا، فتمكن من المحافظة على المناطق المفتوحة بل أراد أن يوسع نطاق نفوذ العرب إلى نهر سيحون فلم ينجح. وأما أسباب الخلاف الذى نشب بينه وبين الخليفة فكانت داخلية سياسية يدل عليها ما تبادلوه من الرسائل

ومما يدلنا على روح سياسته علاقته مع شخص آخر هو سليمان بن أبي السرى المذكور في

الرسالة . وقد كان هذا مولى من قبيلة عوفة . والارجح انه ليس عربي الأصل بل من أهالي البلاد ، ولا سيما اذا عددناه من أقرباء ابي السري من مروه

ونجده في سمرقند في سنة ١٠١ هـ في وظيفة مبهمة ، الا أنها ذات شأن ، اذ يرسل له الخليفة تعليمات مفصلة عن تنظيم الخانات والبريد

وقد عين سليمان في سنة ١٠٢ هـ وكيلا لجمع الخراج في بلاد السغد ، وعهد اليه العامل الجديد سعيد الحرشي في سنة ١٠٤ هـ في أن يحاصر بعض قصور السغد . وعند المحاصرة وقع صاحب هذه الرسالة ديواستي أسيراً في يده كما نرى فيما بعد . وقد عين سليمان بعد ذلك بقليل أميراً لمقاطعتي قش ونسف . وقد ذكره الطبري وكيلا للخراج آخر مرة سنة ١١٠ هـ

أما كلمة طرخون فكانت تستعمل لاسماء الاعلام فقط . واسم طرخون أعجمي في لغة السغد كما يظهر . وبطلنا طرخون هذا أبلى بلاء حسنا في تاريخ فتوحات العرب في آسيا الصغرى . فتسميه العرب تارة ملك السغد ، وطوراً ملك سمرقند . أما المصادر الصينية فتدل على انه برز إلى الميدان بعد سنة ٦٩٦ . وقاتل قتيبة سنة ٨٨ هـ عند فتح بخارى . أما المفاوضة لعقد العهد فيجب أن تنسب لسنة ٩٠ هـ حسب شهادة الطبري . ولقد كانت هذه المعاهدة سبباً لهلاكه ، وبيان ذلك أن قتيبة كان قد أرسل أخاه عبد الرحمن الى سمرقند بعد ابرام المعاهدة بسنة لقبض الجزية . فبعد أن قبضها قام أعوان طرخون عليه فقتلوه وقال اليعقوبي ان خليفته « غورك » قتله . وغورك هذا لعب أيضاً دوراً لا تقل أهميته عن دور طرخون

وأما ديواستي فلم نتمكن من معرفة شيء عنه ، وجل ما وصلنا اليه انه كان يسمي نفسه « مولى » كما في الرسالة ، وهذا يدل على انه كان يعترف بسيادة العرب . أما المدائني فيسميه في الغالب دهقانا أو دهقان سمرقند وقيل له أيضاً « ملك الابغر » المجهول . فهذا يدل على أن ديواستي لم يكن دهقانا عاديا بل اقطاعيا كبيراً . ثم ان الوثائق السغدية والمصادر العربية تشير الى انه كان لديواستي لقب شبيه بلقب غورك ، مما يجعلنا نفرض انه كان في بلاد السغد ملكان في وقت واحد . وهذا أمر صعب جداً . الا أننا نرجو أن نجد حلا مرضياً لهذا الامر بعد تحليل كل الوثائق السغدية

والحوادث التي لها علاقة بذكر ديواستي في المصدر العربي كانت قبل موته مباشرة وبعد كتابة هذه الرسالة بثلاث سنوات

لقد تمكن الجراح أن يضمن في آسيا الوسطى سيادة العرب زمناً معلوماً إلا أنه اضر بمكانتهم تعدد العمال بعد قتيبة . لذلك اضطر العرب ان يستعملوا القسوة فعينوا سعيد الاحرش الامير المشهور بعنفه وبمحاربة الخوارج فقام بحملات تأديبية على السغديين . فتحصن في قصر الابغر مع أهل بنجكنته ومضى ربيع سنة ٧٢٢ في قمع الثورات ولكن سليمان حاصر ديواستي ، وحمله على

الاسلام ضامنا له الامان ، فلما أسلم واستسلم قتله سعيد الحرشي . وأرسل رأسه إلى العراق للعامل عمر بن خبيرة . أما يده اليسرى فارسلها الى سليمان ابن السري . وعزل سعيد فى السنة نفسها

ولموقع القصر أهمية كبيرة فى تفسير هذه الرسالة ويحتمل أن يكون هذا القصر وقصر مبرغ الذى بقربه مقرى ملوك السغد قديما، كما تثبت ذلك شهادة المدائني، اذ يقول ان جيش ديواستى توجه من بنجكنته الى الابغر . غير انه من الغريب أن يتوجه ديواستى إلى الغرب لملاقاة العرب فى الوقت الذى يهاجر فيه أكثر السغديين الى الشرق . وعليه فليس لدينا دليل لمتابعة المؤلف فى ادعائه ان هذا القصر هو الابغر . غير ان القصر الذى فحصته البعثة والذى وجدت فيه اللقيا موقعه الى الشرق من بنجكنته ، ومن الادلة القاطعة على ذلك أن موقع هذا القصر عند مصب جدول كوم فى نهر زروشان . والجدول متصل بقرية كوم وعندها وقع القتال

وبعدما انجلت لنا حقيقة الادوار التى قام بها أشخاص الرسالة فان النص لا يحتاج الى تعليقات طويلة بل الى بعض التدقيق :

أول العبارة فى الرسالة « باسم الله » وهى تدل على أن ديواستى يعترف بأنه مسلم ولدينا أدلة على علاقة هذا الامر بسياسة عمر بن عبد العزيز الذى عرض الاسلام فى أول عهد خلافته على كل ممثلى البيوت المالكة التى على الحدود . فلقى عرضه هذا نجاحا فى آسيا الوسطى فضلا عن الهند ولربما كان هذا خطوة سياسية أو على الاصح دبلوماسية . فغورك أعلن اسلامه وأرسل بعثته الى عمر بن عبد العزيز يؤكد له نياته السليمة . ومما يستحق الذكر أن غورك هذا أرسل فى السنة ذاتها خطابه المعروف الى ملك الصين للثورة على الاسلام . وهذا يدل على أن اسلام غورك لم يكن إلا لغاية سياسية . أما اسلام آسيا الوسطى الحقيقى فقد تم فى عهد الخليفة المعتصم بعد مئة سنة ونيف ولاشك أن ديواستى كان مسلماً سياسة وقد كان فى ديوانه كاتب مطلع على أساليب الكتابة الاسلامية فيرتبها حسب اللازم . ومما يدل على طول باعه فى ذلك عبارته «احمد اليك الله» ففى البابيروس الرسمى لا نجد كلمة اليك لأن البابيروس بخلاف رسالتنا هذه كان يوجه الى حكام سياسيين نصارى . غير أن هذه الرسالة المكتوبة بالعربية لا تدل على أن اللغة العربية كانت اذ ذاك منتشرة رسمياً فى خراسان فنحن نعلم من كلام الجهشيارى انهم كانوا يستعملون الفارسية أو بالاحرى الفهلوية

ويسمى ديواستى نفسه « مولى » الامير وكانت هذه الكلمة تعنى زمن الخلافة الاعاجم أو العبيد الذين كانوا فى ذمة قبيلة أو أحد من العرب وكان عددهم كبيراً جداً وازداد بفتوحات العرب فى المقاطعات التى كانت على الحدود خاصة وقد بين المستشرقون — وفيهم غولدزيهر وولهاوزن وجب — كيف كان للموالى شأن عظيم فى تيسير فتوحات العرب اذا تشيعوا لهم . ولم يكن لقب « مولى » محتقراً فى ذلك العهد . ولما استعمله ديواستى فى رسالته أراد أن يدل على انه حليف العرب

أما كلمة « بريد » في الرسالة فهي عادية اذ أن البريد كان معروفا على زمن الامويين . وكان تأسيسه وتنظيمه يجريان حسب سير الفتوحات العربية . وقد أبدى عمر اهتماماً عظيماً لتوطيد البريد وتحسينه ودليل ذلك ما كتبه الى سليمان المذكور في الرسالة في سمرقند وهذا ما يجعلنا نفرض ان البريد نظم نهائياً في بلاد السغديين حوالى ذلك الزمن . ولاندرى أبعثت الرسالة أم لا فان بعثت فما معنى بقائها في أوراق الكاتب ، وفحص الرسالة يدل على انها كانت قد أعدت للارسال فما هي بصورة للاصل ولعل ديواستي علم بعد كتابتها بعزل الجراح فعدل عن ارسالها

وقد كان اخضاع بلاد السغد على يد قتيبة بعدما اخضع سمرقند سنة ٩٣ هـ (٧١١ — ٧١٢) ولم يكن هذا الاخضاع نهائياً اذ اضطر العرب أن يبقوا جيشاً كبيراً مرابطاً في سمرقند وكش والمخافر التي كانت تمتد اذ ذاك الى بخارى . وقد أوقف موت قتيبة فتوحات العرب ربع جيل تقريباً . بل نرى أن العرب كانوا يجنحون أحياناً الى التقهقر . ولم تحل مسألة السيادة في آسيا الوسطى أهي للشرق أم للغرب أهي للصين أم للعرب ولم تحلها البيوت المالكة المحلية التي بقيت مترددة . فاذا كان عهد طرخون المناصر للعرب قصيرا . فعهد غورك الطويل يصور لنا ذلك التردد السائد اذ ذاك بين الاشراف . كذلك سياسة ديواستي لم تكن ثابتة وان اعترف بسيادة العرب سنة ١٠٠ هـ ذلك انه قطع العلاقة معهم سنة ١٠٣ . فرسالتنا هذه تصور لنا جليا ذلك العهد العصيب في تاريخ آسيا الوسطى بعد أربع سنوات من وفاة قتيبة ويمكن الاعتماد عليها اكثر من المصادر الاخبارية

ولم تنحصر أهمية الرسالة في هذا بل لها أهمية منطقية :

ان المصادر التاريخية العربية عن الفتوحات في آسيا الوسطى كثيرة وقد درسها علماء كثيرون مشهورون بطرق مختلفة مستقلين عن بعضهم كالعلامة بارتولد وولهاوزن . وللعلامة جب تأليف خاص عن عهد الفتوحات ولقد رتب كل المصادر المعلومة عن هذا العهد العلامة كايتاني بطريقة دانية القطوف . ويجمع هؤلاء العلماء المذكورين ماعدا كايتاني صفة واحدة وهي الشك في صحة ما ترويه المصادر التاريخية العربية وخصوصاً تاريخ الطبرى الذى يستند اجمالا الى المدائني

الا أن رسالتنا هذه تجعلنا نسلم بصحة المصادر الروائية بمقدار وتثبت لنا رواية المدائني عن ديواستي وحسبنا أن نقول انه يذكر اسم ديواستي هكذا — « ديواستش » بصيغته السغدية كما تذكرها الوثائق السغدية التي عثروا عليها . وحسبنا أن نزيد أن اسم قرية كوم التي التقى فيها العرب بديواستي حفظ لنا اسم القرية والنهر كوم للآن حيث وجدت هذه الوثائق . وهكذا تحملنا الرسالة ان لا نبالغ في الارتياب من صحة المصادر التاريخية العربية

ثم ان لهذه الرسالة اهمية أخرى تلحق بالخطوط العربية اذ ان خط الرسالة فريد في نوعه

لنينغراد في ٣ اذار سنة ١٩٣٦ (ترجمة) كلثوم عودة
فاسيليفا